مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد السابع والثلاثون/ربيع الثاني- جمادى الآخرة ١٤٣٢هـ . أبريل -يونيو ٢٠١١م

٣٧

- الخاتم النبوي الشريف معلم من معالم الدولة النبوية
- الحفاظ على بيئة المدينة المنورة بين إيزاع التوعية وردع العقوبة
- مخطوطات المدينة المنورة في مكتبة جامعة برنستون
- الأعمال الخشبية في العمارة التقليدية بمنطقة المدينة المنورة

الحفاظ على بيئة المدينة المنورة
بين إيزاع التوعية وردع العقوبة

أ.د. محمود نديم نحاس
كلية الهندسة، ومركز التميز في الدراسات البيئية
جامعة الملك عبد العزيز

مقدمة

في المعجم الوسيط[1]: البيئة هي المنزل والحال. وتبوأ المكان نزله وأقام به، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾[2]، وبوَّأ فلاناً منزلاً أنزله، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾[3]، وبوأ له المنزل أعدّه.

وهكذا تشتمل البيئة على ما يحيط بالإنسان من أرض ومياه وغلاف جوي، كما تشمل الكائنات الحية، من النبات والحيوان، وغير الحية مما خلقه المولى أو شيده الإنسان. وهي كلها تمثل الموارد التي أتاحها الله للإنسان ليحصل منها على مقومات الحياة من غذاء وكساء ودواء ومأوى وطاقة.

وعلم البيئة هو دراسة تلاؤم الكائنات الحية (بما فيها الإنسان) مع

---

(١) المعجم الوسيط، مادة (بوأ).

(٢) سورة الحشر، الآية ٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٥٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بعضها بعضاً ومع بيئاتها المحيطة. والنظام البيئي يشمل التضاريس والمناخ، كما يشمل النظم المختلفة والنشاطات البشرية، أي الظروف والعوامل التي يعيش فيها الإنسان.

عناية الإسلام بالبيئة

لم يأت اصطلاح "الاهتمام بالبيئة" بهذه الحرفية في القرآن أو السنة النبوية أو في الدراسات التي تمت في عصر الحضارة الإسلامية. لكن النصوص التي تهتم بالبيئة كثيرة. ولعل الآية الكريمة ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[١] آية جامعة مانعة لكل ما يؤدي إلى إفساد الحياة على الأرض، من إفساد مادي أو معنوي. ومثلها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢]. أما الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[٣] فتؤكد على أن الإفساد المادي مشمول بالإفساد المنهي عنه في القرآن الكريم. وهذه بعض التفصيلات في رعاية الإسلام للبيئة والحفاظ عليها:

الاهتمام بالبيئة المائية:

اهتم الإسلام بالبيئة المائية في أمرين مهمين، ألا وهما حماية الماء من التلوث، والحفاظ على مصادر الماء من الاستنزاف والهدر.

ففي الجانب الأول يقول رسول الله ﷺ: (**لا يبولنَّ أحدُكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه**)[٤]؛ وذلك لما يتسبب فيه هذا الصنيع

(١) سورة القصص، الآية ٧٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٠٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٢٣٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من تلوث المياه. وفي الحديث أيضاً (**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل**)[١]. والملاعن هي التي تجلب على فاعلها اللعنة من الله والناس، والموارد هي الأماكن التي يكثر فيها الماء. وهذا الحديث ينهى عن تلويث الماء والأماكن العامة التي يأوي إليها الناس. وفي كثير من البيئات يشترك الناس في إناء الشرب، ومن هنا جاء النهي من رسول الله ﷺ: (**إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء**)[٢]، وذلك منعاً لتلوثه. وأمر بإغلاق الأسقية (**وأوكوا الأسقية**)[٣] لمنع تلوثها أيضاً.

وأما في الجانب الثاني، وهو ترشيد استهلاك الماء، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (**أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟! قال: أفي الوضوء سرف؟! قال: نعم! وإن كنت على نهر جار!**)[٤]. والإسراف هو مجاوزة الحد في أي فعل.

ولكي يشعر كل الناس بمسؤوليتهم تجاه الحفاظ على الماء فقد جعلهم رسول الله ﷺ شركاء فيه فقال: (**المسلمون شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار**)[٥]. كما حث على حفر الآبار من أجل الحياة على الأرض، فقال: (**من حفر ماء، لم يشرب منه كبد حرّى من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة**)[٦]، وقال أيضاً: (**من منع فضل مائه أو فضل كلئه منعه الله عز وجل فضله يوم القيامة**)[٧].

---

(١) رواه أبو داود في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، برقم ٢٦.

(٢) رواه الترمذي في سننه عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، برقم ١٨٨٩.

(٣) جزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، برقم ٦٢٩٦.

(٤) رواه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، برقم ٤٠٧.

(٥) رواه ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، برقم ٢٠٢٠.

(٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وبهذه الصيغة ورد في صحيح الترغيب والترهيب للألباني، رقم ٩٦٣.

(٧) رواه الشوكاني في نيل الأوطار عن جد عمرو بن شعيب برقم ٤٦/٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الاهتمام بالبيئة البرية (أو الأرض):

ومن ذلك العناية بمظهرها وتنظيفها من الأذى، فقد جعل الرسول ﷺ هذا الأمر من أبواب الإيمان فقال: (**الإيمان بضع وسبعون باباً، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله**)[١]. وإماطة الأذى كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس. وفي الحديث الصحيح أيضاً (**بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخّره: فشكر الله له ففغر له**)[٢]، وذلك محافظة على البيئة. وقد مر آنفاً النهي عن البراز في قارعة الطريق وفي الظل.

والأرض طاهرة في الإسلام، ففي الحديث (**وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**)[٣]، بل إنها مطهِّرة أيضاً، وهذا معلوم من شعيرة التيمم التي تحل محل الوضوء عند عدم وجود الماء.

ومن الإسلام جاءت فكرة المحميات التي انتشرت في العصر الحديث، والتي يُمنع فيها الصيد وقطع الشجر. فإبراهيم عليه السلام دعا ربه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[٤]. فقد كانت مكة وادياً غير ذي زرع، فسأل الله تعالى أن يجعل لأهلها الأمن والخصب؛ ليكونوا بهما في رغد من العيش، فأجابه إلى ما سأل، فجعله حرماً آمناً. وفي الحديث (**يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى يوم القيامة، لا يعضد شجرها، ولا ينفّر صيدها ولا يأخذ لقطتها إلا منشد، فقال العباس: إلا الإذخر فإنه**

---

(١) رواه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٢٦١٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ١٩١٤.

(٣) هذا جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، برقم ٣٣٥.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

للبيوت والقبور، فقال رسول الله ﷺ: إلا الإذخر)[١]. وفي الحديث أيضاً **(أن رسول الله ﷺ طلع له أُحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها)**[٢].

وشجع الرسول ﷺ إصلاح الأراضي فقال: **(من أحيا أرضاً ميتة ليست لأحد فهو أحق بها)**[٣] وقال **(من أحيا أرضاً ميتة فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهي له صدقة)**[٤].

الاهتمام بالبيئة النباتية:

حث الإسلام على الزراعة، والنصوص في هذا كثيرة منها مثلاً **(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة)**[٥]. وأيضاً **(من كانت له أرض فليزرعها، أو ليمنحها أخاه، فإن أبى فليمسك أرضه)**[٦].

كذلك فإن الإسلام نهى عن قطع الأشجار. ففي الحديث **(من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)**[٧]. وقد ذهب العلماء إلى أن القطع المقصود هنا هو بغير حق. وقد نهى أبو بكر رضي الله عنه في وصيته لقائد جيشه إلى الشام عن قطع الشجر أو حرق النخل أو إغراقه فقال: **(وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تحرقن**

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه عن صفية بنت شيبة رضي الله عنها، برقم ٢٥٤١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، برقم ٧٣٣٣.

(٣) رواه ابن حزم في المحلى عن عائشة رضي الله عنها، برقم ٢٣٥/٨.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، برقم ١١٢/٢.

(٥) رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، برقم ٢٣٢٠.

(٦) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٢٣٤١.

(٧) رواه أبو داود في سننه عن عبدالله بن حبشي الخثعمي، برقم ٥٢٣٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نخلاً، ولا تغرقنه، ولا تغلل ولا تجبن)[١]. هذا في الحرب ومن باب أولى في السلم.

وفي الحديث (**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**)[٢]، فأوضح أنه حتى عند انتفاء كل أمل لدى البشر، فعلى الإنسان أن يحافظ على نمو البيئة وتطويرها؛ وذلك لجمالها في ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها. إنه منتهى الأمل وتواصل العمل بدون كلل.

الاهتمام بالبيئة الحيوانية:

المسلمون ليسوا نباتيين، فهم يأكلون لحم ما أحل الله ذبحه إذا تمت تذكيته بالطريقة الشرعية. لكن الرفق بالحيوان أمر أساسي في هذا المجال. ويوضح الرسول ﷺ طريقة الذبح فيقول: (**إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**)[٣]. وأعطى تعليمات في غاية الرقة لعملية الذبح، ففي الحديث (**أن رجلاً أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي: أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟**)[٤]. ونهى رسول الله ﷺ عن الذبح بغير هدف فقال: (**من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأله الله عز وجل عن قتله. قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي بها**)[٥]. فلا مجال للعب بحياة

(١) رواه البيهقي في السنن الصغير مرسلاً عن يحيى بن سعيد، برقم ٣/٣٨٧.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، برقم ٣٧١.

(٣) رواه الترمذي في سننه عن شداد بن أوس رضي الله عنه، برقم ١٤٠٩.

(٤) غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للألباني، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، برقم ٤٠.

(٥) رواه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما برقم ٤/١١٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحيوان بلا هدف مشروع.

كما حذر الرسول ﷺ من تعذيب الحيوان فقال: (**عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**)[١]. وفي الحديث (**أن النبي ﷺ نزل منزلاً فأخذ رجل بيض حمّرة، فجاءت ترف على رسول الله ﷺ، فقال: أيكم فجع هذه بيضتها؟**)[٢].

ومن ناحية أخرى رغَّب في الرحمة بالحيوان فحدَّث (**أن رجلاً وجد كلباً يلهث من العطش، فنزل بئراً فملأ خفه منها ماء، فسقى الكلب حتى روي. قال الرسول: فشكر الله له ففغر له. فقال الصحابة: أئن لنا في البهائم لأجراً يا رسول الله؟ قال: في كل كبد رطبة أجر**)[٣].

ولقد شرّف الله تعالى الحيوانات بإطلاق أسماء بعضها على سور القرآن الكريم، كسورة البقرة والأنعام والنحل والنمل والعنكبوت والفيل. وحياة الإنسان مرتبطة بالحيوانات، يأكل من لحومها ويشرب ألبانها، ويستعمل جلودها، ويستدفئ بأصوافها وأوبارها وفرائها، ويركب بعضها، ويتخذ بعضها زينة، ويتخذ من منتجات بعضها دواء لأمراضه (كالعسل). بل إن الإنسان تعلّم من الحيوانات أموراً كثيرة، كدفن الموتى، وتقنيات الحرب والدفاع، والصبر على العمل (كالنحل والإبل)، وبناء المنازل وهندستها (كالطيور)، ونظام المعيشة وادخار الأقوات (كالنمل). كما إن الإنسان اخترع الطائرة محاكاة لطيران الطائر. وتعلم أيضاً من الحيوانات المائية والبرمائية فاخترع السفن والغواصات. وأوضح القرآن الكريم أن إنزال الماء

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، برقم ٣٤٨٢.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، برقم ٢٩٥.

(٣) غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للألباني، عن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم ٤٧٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من السماء وإنبات الزرع في الأرض هو للإنسان وللأنعام ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾[١]. وقد جعل رسول الله ﷺ بعض الحيوانات رفيقة للإنسان. ففي الحديث (رأيت رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه، وهو يقول: **الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة**)[٢].

وحرّمت الشريعة الإسلامية أكل لحوم المنخنقة والموقوذة والنطيحة والمتردية وما أكل السبع، للمحافظة على الأنعام ورعايتها حتى لا تتعرّض لمخاطر تؤدي إلى موتها دون الانتفاع بها.

الاهتمام بالبيئة الجوية:

لم يحصل في زمن الرسول ﷺ تلوث للجو كما هو الحال في هذا العصر حيث كثرت المصانع والمركبات التي تحرق الوقود وتبث سمومها في الجو. ورغم ذلك فهناك إشارات صريحة في الاهتمام بالبيئة الجوية. ولعل من أبرزها ما سنَّه رسول الله ﷺ من الغسل حتى لا تنبعث في الجو روائح كريهة تنفِّر الناس. وإذا أمعنا النظر في الاغتسال المسنون لوجدنا أنه سُنَّ لكل ما فيه اجتماع الناس (كغسل الجمعة والعيدين...). كذلك حثَّ رسول الله ﷺ على استعمال الطِّيب لتفوح الروائح الجميلة. والأحاديث في هذا كثيرة، منها (**اغتسلوا يوم الجمعة واغسلوا رؤوسكم، وإن لم تكونوا جنباً، وأصيبوا من الطِّيب**)[٣]. والمشهور عنه أنه كان لا يرد الطِّيب. هذا إضافة إلى الحث على نظافة الثوب والآنية والمنزل والمسجد والأماكن العامة والتي مر آنفاً الحث على إماطة الأذى عنها.

---

(١) سورة السجدة، الآية ٢٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، برقم ٨٨٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، برقم ٣٤٨٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما من تنبعث منه روائح غير محبذة فقد طلب منه رسول الله ﷺ الاعتزال (**من أكل ثوماً أو بصلاً، فليعتزلنا، وليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته**)[1].

وقد ألف الكِندي (**رسالة في الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء**) و(**رسالة في الأدوية المشفية من الروائح المؤذية**). ووضع ابن المبرح كتاباً سمّاه (**فنون المنون في الوباء والطاعون**). وتكلم ابن سينا بالتفصيل في كتابه (القانون) عن تلوث المياه ومعالجته، وعن طبيعة الماء والهواء المؤثرَين في المكان عند اختيار موقع ما للسكنى. أما الرازي فقد نشد سلامة البيئة عندما استشاره عضد الدولة في اختيار موقع لمستشفى بغداد، فاختار الناحية التي لم يفسد فيها اللحم بسرعة. وكانت المستشفيات بصورة عامة تتمتع بموقع تتوافر فيه كل شروط الصحة والجمال. فعندما أراد السلطان صلاح الدين أن ينشئ مستشفى في القاهرة اختار له أحد قصوره الفخمة البعيدة عن الضوضاء، وحوَّله إلى مستشفى ضخم كبير هو المستشفى الناصري. وألف الرازي (**رسالة في تأثير فصل الربيع وتغير الهواء تبعاً لذلك**). وأبان أبو مروان الأندلسي في كتابه (**التيسير في المداواة والتدبير**) عن فساد الهواء الذي يهب من المستنقعات والبرك ذات الماء الراكد. وجاء في كتاب (**بستان الأطباء وروضة الألباء**) لابن المطران الدمشقي ما يؤكد ضرورة مراعاة تأثير البيئة عند تشخيص المرض في بلد أن ينظر في وضع المدينة، ومزاج الهواء المحيط بها، والمياه الجارية فيها، والتدبير الخاص الذي يستعمله قوم دون قوم، وهذه رؤية متقدمة في علم الطب البيئي. وصنف

(١) صحيح الجامع الصغير للألباني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، برقم ٦٠٨٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

محمد بن أحمد التميمي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كتاباً كاملاً عن التلوث البيئي، وأسبابه، وآثاره، وطرق مكافحته، والوقاية منه، وفصَّل الحديث فيه عن ثلاثية الهواء والماء والتربة، وتبادل التلوث بين عناصرها، وجعل عنوانه: (**مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء**)[(١)-(٢)].

طرق التوعية:

الأمّيون من الحجاج والعمّار والزوار كثيرون، وكثير من المتعلمين لا يقرؤون ما يوزع عليهم من كتيبات ونشرات تثقيفية، فتصبح هذه الكتيبات والنشرات محدودة الأثر. وقد قيل: إن صورة واحدة تغني عن ألف كلمة. وقد ثبت أن وسائل الإعلام المرئية هي الأكثر تأثيراً بين وسائل الإعلام الحديثة. ومن هنا فإن طريقة التوعية المقترحة هي البث التلفزيوني. وهناك إرهاصات عن انبثاق قناة تلفزيونية خاصة بالحج.

وإذا انطلقت هذه القناة فسيكون لها دور فعال في تثقيف الحجاج والعمّار والزوار، ليس في هذا المجال فحسب، وإنما في جميع أعمال الحج والعمرة والزيارة. ويجب أن تتم دبلجة برامج هذه القناة إلى كل لغات مسلمي العالَم. وتأثير الدبلجة أقوى من تأثير الترجمة، ولعل القائمين على هذه القناة ينتبهون لهذا.

وإذا لم تنطلق هذه القناة فقد جاء في تقرير حديث عن القنوات الفضائية أن العرب يمتلكون ٣٩٨ هيئة إعلامية، ويبثون ٦٩٦ قناة على ١٧

(١) عبد الستار أبو غدة، البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، الدورة التاسعة عشرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

(٢) أحمد فؤاد باشا، الإنسان والبيئة والتنمية من منظور إسلامي، مجلة العالمية للهيئة الخيرية، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

قمراً صناعياً، منها ٣٩ قناة دينية و٣٤ قناة إخبارية[١]. وليس من الصعب التعامل مع هذه القنوات لبث التوعية المطلوبة، والتي يجب أن تكون على مدار العام، وتزداد كثافة في مواسم الحج والعمرة والزيارة.

ولإيضاح أهمية التوعية في موضوع ليس بذي صلة بموضوع الورقة هذه، إنما يُذكر هنا من باب المقارنة، ما ذكره أحد القضاة أنه أصدر أمراً لكاتبه بألا يعرض أي قضية تتعلق بالطلاق إلا بعد أن يطلب من المتقدم بالدعوى حضور حلقة مصورة بالفيديو تتعلق بالطلاق مدتها نصف ساعة. وهذه الحلقة ليست وعظية مباشرة؛ إنما تعرض قصة أسرة تفككت بسبب ساعة غضب، وتعرض أولادها للضياع. يقول القاضي: إن أكثر من نصف طالبي الطلاق يسحبون طلباتهم بعد رؤية هذه الحلقة ويعودون إلى بيوتهم وأزواجهم.

وبالتالي فإن برامج التوعية التثقيفية يجب ألا تكون برامج وعظية مباشرة فقط، وإنما يتنوع فيها العرض، ويتفنن فيها المبدعون في إيصال الفكرة إلى المشاهدين، تماماً كما يتفنن الآخرون في عرض بضاعتهم المزجاة.

وهذا لا يمنع أن تُستخدم وسائل الإعلام الأخرى كالكتيبات والنشرات والإذاعة والصحافة والإنترنت وغيرها. وفي كل الأحوال ينبغي أن تكون المادة المعروضة عصرية وجذابة.

توعية الحجاج وزوار المدينة المنورة للحفاظ على البيئة:

تتركز توعية الحجاج والعمّار وزوار المدينة المنورة في جانبين: جانب وقائي، وجانب علاجي.

---

(١) صحيفة الجزيرة السعودية، السبت ١٥ صفر ١٤٣١ العدد ١٣٦٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الجانب الوقائي:

ويكون ببث الوعي والتثقيف من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي سبقت الإشارة إليها. وهذا بمثابة وقاية وحماية للبيئة من كل الأخطار التي تتهددها. وللجانب الوقائي الأثر الأكبر في الحفاظ على البيئة إذا تم عرضه بالشكل المناسب.

إن معرفة الدوافع عند الإنسان، ومعرفة الحوافز التي تحث على الاندفاع نحو العمل تعين على استنباط أساليب التوعية المناسبة. فمن المعروف في علم النفس أن الدوافع الأخروية هي أقوى أنواع الدوافع وأعظمها قدراً ومكانة؛ لأنها تدفع الإنسان في السر والعلن وفي كل الأوقات والأزمان والأحوال، وهي دوافع ذاتية داخلية مبنية على كوامن التعبد والفطرة. ويكون إشباعها بالحوافز الأخروية التي هي أشمل الحوافز وأعمقها وأبعدها أثراً في النفس. فالإنسان له من الميول والتوجهات والأحاسيس ما يمهد ويهيئ للتحرك نحو الأهداف البعيدة التي تختلف عن الأهداف قصيرة المدى. فيمارس الإنسان أعمالاً كثيرة دون أن يعوّل على النتائج الدنيوية القريبة، وذلك ابتغاء رضوان الله. وأساليب الحفز الأخروي كثيرة ومتنوعة ومتجددة، ويمكن ابتكار المزيد منها، وتؤثر تأثيراً كبيراً، كما هو الحال مع أعمال الدعاة والوعاظ والمرشدين.

ولقد جعل الإسلام الرقابة الذاتية أساساً لتصرفات المسلم في هذه الحياة، وجعل الخوف من عقاب الله هو الركن الذي تقوم عليه الحياة الإنسانية. ومن هنا تلعب التوعية دوراً مهماً في الحفاظ على البيئة؛ لأنها تبصِّر المسلم بما يجب عليه تجاهها، وتوقظ عنده الضمير لرعايتها.

ومن طرق تنمية الوعي البيئي أن يوضَّح للإنسان مدى ارتباطه بالبيئة، وأن يتم تعليمه أن حقوقه في البيئة يقابلها دائماً واجبات نحوها، فليست

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هناك حقوق دون واجبات، فهو يتأثر بها ويؤثر عليها، وبالتالي يبدو جلياً أن مصلحته تكمن في تواجده ضمن بيئة سليمة؛ لكي يستمر في حياة صحية سليمة.

ولعل مفهوم الاستخلاف للإنسان ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وكذلك مفهوم عمارة الأرض وإضافة الجديد إليها ورعايتها وزيادة مواردها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[2] خير رابط بين الإنسان وبين بيئته. فقد جعل الله هذا الكون الفسيح من سماء وأرض وما بينهما مسخراً للإنسان، يؤدي مهمته كما أرادها الله بنظام ثابت لا يتغير. وقد جاء الإنسان إلى الأرض فوجدها متوازنة، معطاءة، مهيأة للحياة في كل عناصرها، وكلها نِعَم سخرها الله لخدمة الإنسان. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[3]. والتسخير يشكل دعوة لاستثمار نِعم الكون بعد اكتشافها والاستمتاع بها والإحساس بجمالها. أما العبث بنواميس الكون وسننه وتغيير معالمه فهو ضد النعمة؛ لأنه مقابلة بالكفر بدل الشكر. ولذا فمن الضروري توعية الناس وحثهم على تذوق القيم الجمالية لمكونات البيئة.

ولا شك أن العقل السليم في الجسم السليم في البيئة السليمة. والمسلم حريص على تنفيذ تعاليم دينه الحنيف، ومن الضروري تثقيفه بأهمية المحافظة على نظافة البيئة وحرمة إفسادها؛ لتبقى خالية من الأمراض والأضرار.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة هود، الآية ٦١.

(٣) سورة لقمان، الآية ٢٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كل هذه الأمور تشجع المسلمين لرعاية بيئاتهم التي قدموا منها، كما تشجعهم لرعاية بيئة الحرمين الشريفين، وبخاصة بيئة المدينة المنورة حيث الحرم النبوي الذي يضم الروضة الشريفة وقبر الرسول ﷺ. وما أحلى أن يكون هناك مشروع لجعل بيئة المدينة المنورة خضراء، وذلك بتشجيع كل مسلم على زرع شجرة أو نخلة فيها.

ومن الأهمية بمكان توعية الحجاج والعمّار والزوار على عدم الإسراف في استهلاك الماء كيلا تستنزف الموارد الطبيعية وتتبدد.

ومن أساليب الحفاظ على البيئة حث الناس على قيم الحفاظ على مكوناتها مثل: نقاوة الغلاف الجوي (بالامتناع عن التدخين، والإقلال من استخدام وسائل النقل الخاصة التي تبث سمومها في الجو)، ونظافة الماء، ورعاية الأشجار والنباتات، والرفق بالحيوان، والمحافظة على نظافة الطرقات، والمحافظة على نظافة الحرم وبيوت الله والأماكن العامة، والمحافظة على الصحة البدنية، والمحافظة على الهدوء وتوفيره، وعدم إثارة الضجة لاسيما في الحرم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، والاعتدال في كل شيء وعدم التبذير، واستخدام الحمامات العامة بشكل سليم.

ومن المهم أن تتم توعية الناس بأن الحفاظ على البيئة يعني أن يؤدي كلٌّ من مكونات البيئة دوره المنوط به حتى لا يحدث خلل في الكون[2].

ومن أعظم ما يفسد البيئة، ويجلب الفساد في البر والبحر والجو: اتّباع الإنسان لهواه، وركضه وراء شهواته، وإشباع غرائزه الدنيا على حساب

(١) سورة الحجرات، الآية ٣.

(٢) يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المثل العليا، وخضوع الإنسان لنداء أنانيته وفرديته، ولو جار ذلك على حقوق غيره، وترجيحه لرغبات يومه دون الالتفات إلى غده[١].

الجانب العلاجي:

يتسلح الغربيون بقوة القانون لحماية بيئتهم، فيلجأ أصدقاء البيئة (الذين يسمونهم بأحزاب الخضر) إلى تنظيم حملات للضغط على حكوماتهم لسن تشريعات تحدُّ من التلوث، وتمنع الاستغلال المفرط للبيئة، معوّلين في ذلك على دور القوانين الوضعية التي تأخذ طريقها إلى التطبيق في ردع المخالفين.

وإذا كانت العقوبات في الإسلام محدودة، وهي خاصة بالجرائم التي تهدد أمن المجتمع، فإنه ليس في الإسلام عقوبات رادعة لمن يسبب أضراراً للبيئة، لكن قاعدة "**لا ضرر ولا ضرار**"[٢] التي وردت في أحاديث عديدة، تعطي المسؤولين صلاحية منع أي عمل ينتج عنه ضرر، ومن ذلك الضرر الناتج للبيئة. ويمكن وضع العقوبات التعزيرية لمن يسيئون إلى البيئة حسب هذه القاعدة. ومن العقوبات الممكنة الغرامات المالية. لكن الباحث يقترح عقوبة أقوى أثراً من الغرامة المالية، تتمثل في أنه من يعمل عملاً مضراً بالبيئة من أي نوع يؤخذ إلى مكان خاص، ويُجبر على مشاهدة حلقة بالفيديو عن مساوئ الإضرار بالبيئة وأهمية الحفاظ عليها. وطريقة الردع هذه إذا عُرفت في المجتمع فإنها تؤدي إلى الامتناع عن مخالفة قوانين البيئة. فمثلاً من يرمي وسخاً في الطريق لتكاسله عن رميه في الأماكن المخصصة، إذا كان عليه أن يضيع ساعة من نهاره، مهما كان مشغولاً،

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه النووي في الأربعين النووية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، برقم ٣٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في الذهاب إلى قسم التوعية ليرى مثل هذه الحلقة فإنه سيمتنع عن رمي الأوساخ مرة أخرى. وعندما تُعرف هذه الطريقة فإن الناس يمتنعون خوفاً على وقتهم من الضياع. كما يكون لهم درساً يتعلمونه خلال عرض الفيديو أن مخالفة قوانين البيئة تستوجب العقاب الرباني؛ لنهي رسول الله ﷺ عن أمثال هذه الأفعال، كما ورد في بداية البحث.

إضافة إلى ذلك فإنه يمكن أخذ المسيء للبيئة إلى محكمة خاصة بالبيئة تكون أحكامها مستعجلة، ويكون من التعليمات المعطاة للقضاة فيها بأن يحكموا عليه بغرامة مالية تتناسب مع إساءته، أو صدقة يدفعها إلى إحدى الجهات الخيرية. هذا إضافة إلى عقوبة بدنية، حيث يلزم المدان بمخالفات البيئة بأداء أعمال تطوعية لخدمة البيئة أو المجتمع لعدد معين من الساعات يحدده القاضي بناء على حجم المخالفة التي وقع فيها المدان، مثل الإسهام بيده في برامج غرس الأشجار التي تقوم بها البلديات، أو المساهمة في تنظيف الشوارع والساحات والحدائق العامة، أو المشاركة في برامج التوعية حول أهمية المحافظة على البيئة. فمثلاً إن كان مثقفاً فعليه أن يساهم في تحضير درس لإلقائه على غيره من المدانين حول موضوع المحافظة على البيئة، وإن لم يكن قادراً على ذلك فيمكن أن يوزع نشرات في المحافظة على البيئة.

وإذا استُخدمت أساليب التوعية المناسبة في المدينة المنورة مع التذكير الدائم بأن هذا المكان هو موطن رسول الله ﷺ الذي انطلقت منه التوجيهات النبوية للحفاظ على البيئة، ثم طُبقت العقوبات المذكورة، فمن المتوقع أن يصبح مجتمع المدينة المنورة مثالاً يُحتذى في الحفاظ على البيئة، ويتم تصدير تجربته إلى غيرها من المدن.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الخاتمة:

إنه يمكن القول وبكل ثقة بأن تعاليم الإسلام رائدة في المحافظة على البيئة، وذلك من كثرة النصوص التي وردت في هذا المجال. وهذا ليس بمستغرب، فالخالق سبحانه وتعالى أعلم بما يصلح حال الناس، وهو الذي أرسل رسوله ليكون خاتم النبيين، فشرّع لهم ما يصلح حالهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ورغم أن مصطلحات مثل البيئة، والوعي البيئي، وترشيد الاستهلاك، والحفاظ على البيئة، هي مصطلحات حديثة، ومع ذلك فإن الأحاديث التي تم إيرادها في هذا البحث تظهر اهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحيوي في العصر الحديث. فمن أوامرٍ تحفظ الماء من التلوث، إلى نهي عن التبذير في استخدام المصادر، إلى تعليمات في استخدام الأرض والمحافظة على نباتها وحيوانها، إلى تنبيهات في الحفاظ على الجو... كل هذا في إطار يجعلها وكأنها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة.

وإذا كانت مفاهيم الحفاظ على البيئة حاضرة في أذهان المسلمين في عصر حضارتهم الزاهية، وإذا كان بعضهم اليوم قد ابتعد عن أهمية مثل هذه النصوص التي تصلح حال الإنسان، الذي هو خليفة في الأرض، والذي طُلب منه عمارتها، فإن على التوعية أن تلعب دورها بما يناسب طرق العصر وأساليبه في التنبيه إلى الحياة المثلى على وجه الأرض من خلال تعاليم الإسلام الحنيف. ولا بد من تربية الناس جميعاً على الوعي البيئي، وتبصيرهم بحقيقة الموقف الإسلامي الأصيل من البيئة ورعايتها، وتثقيفهم عبر وسائل التثقيف الحديثة، وإيقاظ مراقبة الله في أعمالهم ومنها التعامل مع البيئة. وهذا الأسلوب الوقائي هو خير من الأسلوب العلاجي، لأنه مبني أصلاً على الرقابة الذاتية في ضمير المسلم والمشفوعة بحوافز الإحساس

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالرقابة الإلهية الدائمة وحساب الآخرة المؤكد. وإذا كان لابد من العقوبة لمن لا يرتدع، فإن الباحث يقترح أن تكون العقوبة إلزام المخالف على سماع التوعية والتثقيف المطلوب لردعه عن مخالفة قوانين الحفاظ على البيئة، وكذلك إلزامه بالمساهمة في الأعمال التي تحافظ على البيئة على أن يقوم بهذه الأعمال بيده. هذا طبعاً إضافة إلى الغرامات المالية، وإن كان الباحث يرى أن العقوبات من النوع الأول أكبر تأثيراً من الغرامات المالية.

وليكن مجتمع المدينة المنورة هو أول مجتمع تطبق فيه التوعية من جانب، والعقاب من جانب آخر، فتكون نبراساً يُهتدى به، ثم ليتم تصديرها إلى مدن أخرى في العالم الإسلامي أجمع.

أخيراً فقد ركّز هذا البحث على المسؤولية الفردية تجاه الحفاظ على البيئة، ولا شك أن هناك جوانب تكون المسؤولية فيها جماعية، أو من مسؤولية الدولة، وهذا لم يتطرق إليه هذا البحث.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المراجع

١) القرآن الكريم.

٢) ابن حجر العسقلاني، تخريج مشكاة المصابيح، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٢م.

٣) أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الصغير، تحقيق عبد المعطي بن أمين قلعجي، دار الوفاء، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٤) أحمد فؤاد باشا، الإنسان والبيئة والتنمية من منظور إسلامي، مجلة العالمية للهيئة الخيرية، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٦) سليمان بن الأشعث بن إسحاق أبو داود، سنن أبي داود، تعليق أحمد سعد علي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٧) صحيفة الجزيرة السعودية، السبت ١٥ صفر ١٤٣١ العدد ١٣٦٣.

٨) عبد الستار أبو غدة، البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، الدورة التاسعة عشرة لمجمع الفقه الإسلامي الدولي، الإمارات العربية المتحدة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

٩) علي بن أحمد بن حزم الظاهري، المحلى بالآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٠) محمد بن إسماعيل البخاري، الأدب المفرد، نشر وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف في الإمارات العربية المتحدة، ١٤٠١هـ.

١١) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري (الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، تحقيق محمد بن زهير الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٢هـ.

١٢) محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار من أسرار منتقى

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأخبار، دار ابن عفان، القاهرة، ١٤٢٦هـ.

١٣) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي المسمى الجامع الصحيح، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

١٤) محمد بن يزيد بن ماجه الربعي القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد بن فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٠م.

١٥) محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

١٦) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، القاهرة، ١٤٢١هـ.

١٧) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٨) محمد ناصر الدين الألباني، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٩) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ)، تحقيق محمد بن فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٧٤هـ.

٢٠) يحيى بن شرف الدين النووي، الأربعون النووية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٢١) يوسف القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة